هذا السؤال ، حتى لو كان التفسير هذا سحريا ، وكانت السببية هذه من نوع اسطوري · ويأخذ الفكر هذا نهجه التالي : «لبنان بلد فريد في العالم · فهو يتطلب فهما خاصا ، لان قدره ، بالضبط ، قدر لا مثيل له · ولا تنفع في فهمه الترسانة العلمية لاقتصاديي الكون كلهم ، فهي وهمية ، ولا جدوى منها » · اذن ، من هنا يبتدىء التفسير : « يبتدىء من درس في الجغرافيا والتاريخ » (١٥) · هكذا يحل العامل الجغرافي في هذا الفكر محل العامل الاقتصادي والسياسي والتاريخي نفسه في تفسير الواقع الاجتماعي ، وتتأكد وظيفته الايديولوجية بتأكيده تغييب التفسير العلمي (١٦) ·

نشير ، عن قصد ، الى هذا العامل الجغرافي وحده ، دون العامل التاريخي ، برغم ورود كلمة التاريخ في النص الشيحاوي · فهي كلمة تحمل من الالتباس والغموض قدرا يفوق ما قد تحمله من الوضوح · انها ، في النص ، تعكر صفاءه الايديولوجي · وهذا ايضا ملازم للغة الايديولوجية التي لا بد من فك طلاسمها، بالنقض ، حتى تصرح بالضمني منها ، وبالظاهري ايضا ، ان لم يكن احيانا ضده · فما التاريخ ، في ذلك الفكر الجوهري ، سوى حركة يتكرر فيها الماضي في الحاضر والمستقبل ، لانها حركة تكرار الجوهر · ويحتار القارىء في امر هذا الجوهر ، ما هو ؟ لا نكبت رغبتنا في القول انه يكاد يكون ارجاعا للتاريخ الى جغرافيته الطبيعية · فالتاريخ هذا ، تاريخ لبنان ، لا يتكرر في تماثله بذاته الا لان جغرافيته الطبيعية هي التي تحدد له حركته هذه · انها عامل هذا « الاستقرار النسبي » (١٧) · للبنان على امتداد خمسة الاف سنة · هي التي تؤمن له ديمومته · انها مبدأ تفسير هذا الثابت المتجوهر فيه · بها كان « لبنان اليوم هو هو تقريبا لبنان فينيقيا الاصل » (١٨) · على امتداد هذا التاريخ كله ، لم يتغير هذا الثابت المتجوهر فيه · « فبسبب موقعنا في الفضاء ، ولاننا بلد جبال ومناخاتنا ملائمة ، ولان لنا واجهة فسيحة على البحر العريض ··· كنا مأوى للمضطهدين وملجأ للمنبوذين ··· ولان ارضنا صغيرة، وجبالنا ليس بامكانها ان تؤوي الملايين من البشر وتطعمهم ، كانت تنطرح علينا مسألة الهجرة ، كلما فاض بلدنا بسكانه » (١٩) · وفي مكان اخر ، يعود شيحا فيؤكد ان **الاسباب هذه نفسها** (لم يتغير شيء ، بل الشيء نفسه يتكرر منذ خمسة الاف سنة) ، هي التي دفعت اللبنانيين الى الهجرة ، منذ القرن التاسع عشر ، « الى مصر ، في البدء ، ثم في الاتجاهات الاربعة كلها » (٢٠) · ولهذه الاسباب نفسها (وكلها ، كما نلاحظ ،اسباب جغرافية) « قضي علينا ، كما في السابق، ان نعيش في خطر » (٢١) · « فلبنان ، بسبب موقعه الجغرافي ، هو ، بكل بداهة ، رأس جسر نموذجي » (٢٢) · « انه مفترق طرق · انه ساحة عامة » (٢٣) ·

يتبين لنا من هذه التعريفات كلها ، ان ثمة قدرا جغرافيا ، يحكم تاريخ لبنان